شذرات عن ابرهيم باشا المصري

رأيت اسم ابرهيم باشا على مناشير اولاً (ابرهيم ميرميران وسر عسكر مصر) ثم (الحاج ابرهيم والي جدّه والحبشة وسر عسكر عكا حالاً) ثم (سر عسكر عربستان)[1] وكتب الى عرب البادية في سورية يوم فرّوا من وجه جنودهِ : « فررتم الى البيداء وظننتم انها تحميكم والذي اوسعها لاضيّقنها عليكم »

واراد اتخاذ طرابلس او صيدا محجراً صحيّاً (كورنتينا) فابى السكان ورضي البيروتيون فبعد ان كان سكان بيروت قبل الدولة المصرية نحو ستة آلاف صاروا ستة ١٨٣٨ خمسة عشر الفاً . وصارت اسكلة تجارية منذ ذلك الحين

لما ودع محمد علي باشا ابنهُ ابرهيم باشا عند سفرهِ الى سورية وسمهُ حنا بك البحري الحمصي وضع محمد علي يدهُ على كتف البحري قائلاً : « بحري بك ان ابرهيم ذاهب الى بلدك .. » فاثنى بحري مطيعاً واخلص الولاء لهُ

وكانت نفوس مدينة حلب عند جلاء ابرهيم باشا عنها نحو ثمانين الفاً واستراح النصارى في حكم الدولة المصرية وكثير ممن فرّ منهم من ظلم الجزار وعبدالله باشا والحرافشة عادوا الى اماكنهم وراجت اعمالهم وفُتح باب التجارة بين اوربا وسورية ودخل المرسلون الاميركان وراقب سوق المعارف واسست المدارس واثرى كثيرون من التجار واتصلت سورية بمصر فنقل اليها كثيرون

جاء كثيرون مع ابرهيم باشا وتوطنوا البلاد منهم آل حماده السنيون في بيروت وبنو الخضيري وشورى والمصري في دمشق . وآل الشقيري في عكا . وغيرهم ممن هم اليوم من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين ولهم ذراري

وبقي كثيرون من العساكر المصرية ولاسيما في عكا ولبنان وحوران وجهات دير الزور والداخلية وهم الآن سوريون موطناً معروفون بملامحهم المصرية وبعضهم ينتسب الى مصر

نقل ابرهيم باشا كثيراً من سكان بلاد العلويين (جبال النصيرية واللاذقية) الى ادنه وطرسوس ومرسين فسكنوها وهم اليوم من اعيانها

---

(١) كان ختم ابراهيم بك بحجم الريال المجيدي ووسطه مربع فيه (سلام على ابراهيم) وحوله اربع نسخات في احداها (توكلت على الله)

بنى كثيراً من القلاع مثل تكنة حمص (قشلتها) وهي مقابل قصر الحكومة (السراي) ونقل حجارتها من قلعة حمص القديمة وذلك سنة ١٨٣٢ عند ما انتقض اهلها عليه برجوعه من موقعة (نزيب) (١)

وبنى تكنة في حلب كان يعرف محلها بالجبل الاحمر سنة ١٢٤٨ هـ (١٨٣٢ م) بعد دخوله حلب وقيل انهُ رممها فقط فهدم ما ابقتهُ الزلزلة من مباني قلعة حلب المتداعية وكل بناء متداع في المدينة ونقل حجارتها الى التكنة وحمل الناس على العمل بها فاقامها في ثلاث سنوات وهي محلة الشيخ يبرق . وبنى تكنة اخرى في اطراف الكلاسة لم يتمها . وبنى اسماعيل بك حكمدار حلب من قبله المدرسة الاسماعيلية في حلب سنة ١٨٣٩ . وامر ابرهيم باشا مطاحن هوائية في شمالي قلعة الشيخ يبرق بحلب عطلت بعدهُ ثم جددت وشيد مستشفى الرمضانية في محلة مدرسة باسمهِ وهو للعسكرية سخَّر لهُ الناس ونقل حجارتهُ من القلعة واسوار المدينة ورُمِّم بعد ذلك

واستجلب معهُ من مصر كتاباً واطباء وعلماء كثيرين مثل المعلم جرجس القبطي وحنا بك البحري السوري الاصل وكلوت بك والدكتور صالح شوري واستخدم من الوطنيين الدكتور مخايل مشاقة والدكتور ابا سليمان الصليبي و بطرس كرامه الحمصي والشيخ امين الجندي . ومدحهُ الشعراء ومنهم الشيخ ناصيف اليازجي وغيرهُ

ونقل رجالاً من لبنان الى مصر لزرع التوت وتربية دود الحرير فتوطنوها ورأى مرة الامير بشيراً يشكو الماً ولا طبيب عندهُ فطلب منهُ من عمَّهُ الطب في قصر العيني وكان اول طبيب داود باز من دير القمر ثم مملوكه سليم و يوسف الجلخ وغالب البعقليني بعد ذلك

ومن غريب ما وقفت عليه ان شيخين من بني الجندي في سورية احدهما الشاعر الشيخ امين الذي رافقهُ ومدحهُ بقصيدة مشهورة مطلعها :

عرِّج اخا البأساء نحو بني العلى واشم ترى اعتابهم متذللا
وابسط اكفَّ رجاء كسرك نحوهم واجر الدموع على الخدود ترسُّلا

(١) ظنها كثير من المؤرخون تحريف نصيبين والصواب انها غيرها لان نزيب هذه من اعمال قضاء البيرة (بيرجيك) في غرب ديرة بقرب بالس وهي بلدة وافرة الخيرات عامرة حدثت فيها مواقع حربية منها موقعة سابور الفارسي وامبراطور الروم لما نصيبين في بلاد الجزيرة قرب سنجار اشتهرت بمدرستها الكبيرة

ونسيبهُ امين الجندي منشئ القرد ودمشق نظم قصيدة هجاهُ فيها حين جلائهِ من البلاد مطلعها :

هجم السرور على الانام مسهلا والنصر جاء مكبّراً ومهلّلا

الى ان قال يمدح السلطان و يذم ابرهيم باشا :

واغاث هذا الدين من قوم بهم ملئت فجاج الارض ظلماً مذهلا

والقصيدتان طويلتان في خزانتي لسختاهما النادرتان

ومدح ابرهيم باشا كثير من الشعراء وجمعت من اقوال الزجالين عندي في حروبهِ ما فيهِ فوائد كثيرة عن اخبار لم يذكرها المؤرخون عنهُ

ومما يذكر من اعمال ابرهيم باشا ابطالهُ سلطة الاقطاعيين واستبدادهم وخفض شوكة الامراء ولاسيما الحرفوشيين الذين اشتهروا بمظالمهم وعمم الزراعة وحثهُ على اقتنائها لانها من اخص اسباب العمران الاولية فادخل في سورية زرع الارز والنيل وجلب دودة القرمز وحفر المعادن الحديدية والفحم الحجري وسخّر الناس لذلك . ورقى الصناعات والتجارات وامّن الطرق وسهّل اسباب النقل . وكان يرسل عمالهُ لاتمام هذه الافكار وقرّر حق التملك وضرب على أيدي المرتشين والمحابين

وكان مع كل هذه الاحسانات لا يخلو من بدوات خاصة في اوقات غضبهِ وساعات تأثرهِ ولهُ من ذلك اعمال كثيرة كان يحكم فيها بقتل من يكدّر مشربهُ ومصادرتهِ . ومما يروى الدمشقيون انهُ امر مرة بتحديد اسعار الحنطة لكثرة تلاعب التجار بها وعين اسعاراً وامر التجار ان يبيعوا كلهم بها وفي اليوم الثاني طاف في المدينة فرآهم ممتثلين ولكن حنّاطاً منهم مختلف عن مخزنهِ فاستدعاهُ فرآه لا يريد البيع بالاسعار المعينة فسمّر أذنهُ على باب مخزنهِ كل النهار حتى خشي الجميع بأسهُ . وكان لهُ اوقات لا يُدنى منهُ فيها ولا يخاطب فانهُ في سنة ١٨٤٨ لدى عودتهِ من الاستانة امر باغراق جميع الضباط في سفينتهِ لانهُ تصوّر انهم اخرّوا سيرها مع ان الانواء اغرقتهُ فنجا كاتم اسراره نوبار باشا الارمني عن قتلهم بدراية غريبة . وهتف ابرهيم وهو يحتضر والدموع تجول في مآقيهِ « اللهم لا تقبض روحي قبل ان أتم عمل ابي واجعل مصر سعيدة وامتها غنية »

ومما يحقق بعدد اللبنانيين في ايام الحكومة المصرية تقرير قدمهُ المعلم بطرس كرامة

الحمصي سنة ١٨٤١م الى بعض رجال الاستانة لما كان فيها مع الامير بشير الكبير منفيين وهو نتيجة خدمة خمس وثلاثين سنة للامير قال فيه بالحرف

« ان البشر سكان هذا الجبل (اي لبنان) هم ثلاثة مذاهب معلوف ونصارى ودروز فالمعلوف فرقتان سنة وشيعة والنصارى ثلث فرق موارنة وروم كاثوليك وروم غير كاثوليك والدروز فرقة واحدة . ومجموع عدد اهاليه ذكوراً من ذي عمر اربع عشرة سنة الى ذي عمر سبعين سنة هم ستون الف ذكر لاغير لأن اهالية المذكورة في المدة التي هي من سنة ١٢٤٨ اسلامية الى سنة خمس وخمسين[1] قد عدّوا مرتين لاجل وضع الجمالة عليهم فاول مرة بلغ عددهم ثلاثين الفاً وكان العدد بدون ضبط واعتناء فلذلك بعد سنتين رجع العدد باكثر ضبط واعتناء فبلغ اربعين الفاً بموجب دفتر مشتمل على عدد القرى قرية قرية وعلى عدد الذكور في كل قرية نفراً نفراً بالاسماء ويضاف على الاربعين الفاً المذكورة عشرون الفاً ايضاً بالمقابلة الى ما فيه من انواع الاكليروس والامراء والمشايخ واتباعهم واحزابهم الذين ما دخلوا في العدد وبمقابلة ما حصل من الاغضاء عن العدد ترفقاً بالناس فالستون الفاً المحررة منهم موارنة ثلاثون الفاً منهم من يستطيع حمل السلاح عشرون الفاً . ومنهم روم كاثوليك ستة آلاف منهم من يستطيع حمل السلاح سبعة آلاف . ومنهم روم غير كاثوليك سبعة آلاف منهم من يستطيع حمل السلاح خمسة آلاف . ومنهم دروز عشرة آلاف منهم من يستطيع حمل السلاح ثمانية آلاف . ومنهم مسلمون أهل سنّة الف منهم من يستطيع حمل السلاح سبعمائة ومسلمون شيعة ثلاثة آلاف منهم من يستطيع حمل السلاح الفان وثلاثمائة

فهذا عدد جميع الذكور فاذا فرضنا لكل ذكر اثنين من الاناث والاطفال فيكون جميع النفوس التي فيه مائة وثمانون الفاً ومع المبالغة يكون مائتا الف لا غير انتهى[2]

في ١١ نيسان سنة ١٨٤١ بالاستانة (محل الختم) بطرس كرامة

زحلة اسكندر عيسى المعلوف

---

(١) وهي توافق سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٣٩ مسيحية

(٢) نقلت هذا التقرير من كتاب (حوض الجداول) للمطران مرعي بوس عط الزحلي رئيس اساقفة حمص وحماه وبيروت اذ ذاك وهو مخطوط فيه فوائد تاريخية كثيرة